تأثيرات المشروع الثقافي الاستعماري في الجزائر المعاصرة.
التأثيرات اللغوية والثقافية.

أ/ شريبط وسيلة.

جامعة الأمير عبد القادر – قسنطينة –

تقديم:

في الوقت الذي تراجع فيه الاستعمار المباشر، برز بدله نوع آخر من الاستعمار لا يقل شراسة وعدوانية عن الاستعمار التقليدي، وهو ما يمكن أن نطلق عليه بالاستعمار غير المباشر وأكثر دقة التبعية الاستعمارية في شتى المناحي والأوضاع سواء منها السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية وأخصها الثقافية واللغوية.

لقد تعرضت الجزائر للاستعمار – شأنها شأن معظم البلاد العربية والإسلامية– خلال حقبة تاريخية زادت عن 130 سنة[1] ذاق خلالها الشعب الجزائري صنوف الاستعباد والاستغلال على يد طغمة من الفرنسيين كانت نتيجتها خاصة مليون ونصف من الشهداء الأبرار، وملايين من اليتامى والثكالى والأرامل، وبالرغم من مرور 43 سنة على الاستقلال إلا أن انعكاسات

---

[1] – شاء الله عز وجل أن يكون اليوم الذي بدأ فيه استعمار الجزائر هو اليوم نفسه الذي استقلت فيه، والفارق بينهما 132 سنة، حيث دخل الفرنسيون مدينة الجزائر في 14– محرم– 1246هـ = 5– جويلية– 1830م.

تأثيرات المشروع الثقافي الاستعماري في الجزائر المعاصرة.
التأثيرات اللغوية والثقافية.

أ/ شريبط وسيلة.

جامعة الأمير عبد القادر – قسنطينة –

تقديم:

في الوقت الذي تراجع فيه الاستعمار المباشر، برز بدله نوع آخر من الاستعمار لا يقل شراسة وعدوانية عن الاستعمار التقليدي، وهو ما يمكن أن نطلق عليه بالاستعمار غير المباشر وأكثر دقة التبعية الاستعمارية في شتى المناحي والأوضاع سواء منها السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية وأخصها الثقافية واللغوية.

لقد تعرضت الجزائر للاستعمار – شأنها شأن معظم البلاد العربية والإسلامية– خلال حقبة تاريخية زادت عن 130 سنة[1] ذاق خلالها الشعب الجزائري صنوف الاستعباد والاستغلال على يد طغمة من الفرنسيين كانت نتيجتها خاصة مليون ونصف من الشهداء الأبرار، وملايين من اليتامى والثكالى والأرامل، وبالرغم من مرور 43 سنة على الاستقلال إلا أن انعكاسات

---

[1]– شاء الله عز وجل أن يكون اليوم الذي بدأ فيه استعمار الجزائر هو اليوم نفسه الذي استقلت فيه، والفارق بينهما 132 سنة، حيث دخل الفرنسيون مدينة الجزائر في 14– محرم– 1246هـ = 5– جويلية– 1830م.

السياسة الاستعمارية الفرنسية ما زالت متواصلة إلى وقتنا الحاضر وقد دخلنا الألفية الثالثة.

لهذا سنركز على النموذج الاستعماري الفرنسي بالجزائر، والذي يمكن تعريفه بالنظر إليه من عدة جوانب، فهو ينتمي إلى كيان جغرافي (أوروبا)، وصاحب ديانة (المسيحية)، وله فلسفة (التنوير)، وضمن إثنية(العرق الأبيض)، وداخل نظام اقتصادي (الرأسمالية الشرسة)، **وعليه فما مدى تأثيره كاستعمار مباشر أولا، وكاستعمار غير مباشر ثانيا وخاصة على تشكيل المنظومة اللغوية والثقافية والفكرية للشعب الجزائري** ؟ ، ونقصد من ذلك الآثار السلبية التي انعكست على أهم مقوم للثقافة الجزائرية وهي اللغة التي هي كذلك القانون الأول الذي يخضع له الفرد خلال مراحل تنشئته الاجتماعية والتي تنقله من الطبيعة إلى الثقافة، والتي تأثر حتما في تشكيل منظومة القيم، التي تعبر بصدق على مسار التحول في المجتمعات والأمم.

إن واقع الثقافة واللغة في الجزائر المعاصرة يعكس وضعا فاضحا لحالة اللاواقع التي وصلنا إليها، فنحن في وضع لا نحسد عليه أبدا تجسده أحد الاتجاهات الثلاث الآتية:

- **الاتجاه المتخلف.**
- **الاتجاه المسلوب .**
- **الاتجاه التابع.**

ويبقى الاتجاه الرابع ويعني التميز وتحقيق الذات وهو الوضع الطبيعي الذي نأمل تحقيقه في القريب العاجل.

وعلى ضوء الوضع اللاطبيعي لسياسات التغريب، والتي أتت على كافة البلدان الإسلامية ومنها الجزائر طبعا، نجد بالمقابل الدول الغربية- التي لعبت دور الاستعمار التقليدي وما زالت تلعب دور الاستعمار الجديد- قامت بتطوير مجالات التقنية المعلوماتية، والاتصالية بشكل رهيب، وبه ساهمت في إرباك العقل العربي المسلم وتشويه الرؤيا المستقبلية له، وهذا عن طريق التغريب الثقافي وخصوصا تعظيم لغتها على أنها لغة العلم والحضارة، وإهمال تدريس اللغة العربية، والتمكين لها خاصة من ناحية التواصل المعرفي ولا شك في أن هذا التوجه القصد منه إضعاف الروابط القوية التي تجمع بين اللغة العربية والدين الإسلامي باعتبارها لغة الرسالة الخاتمة وما أدراك فهي لغة القرآن كلام المولى عز وجل وهكذا كان مدخلهم تهميش اللغة العربية للسيطرة المطبقة على البلاد والعباد.

ولما كانت الثقافة هي الوسيلة المثلى لايقاظ الفكر لدى مختلف الشعوب في سبيل النهوض بها، فهي كذلك تتداخل مع اللغة في عملية التنشئة الاجتماعية للفرد باعتبارهما ضابطين لتأطير الفرد ومنحه في المقابل هوية محددة. لهذا نجد إن من مخاطر التبعية الثقافية كذلك السيطرة على العقل وهذا بتحديد نمط وطرق تفكيره فتظهر على ذلك إلى جانب الثقافة الأصلية المهمشة ثقافة فرعية أجنبية هي أصل التنشئة الاجتماعية والسياسية للصفوة وخاصة من يتصدى منهم لمعترك الحياة السياسية.

وسنتناول تأثير المشروع الثقافي الاستعماري على الجزائر المستقلة المعاصرة ضمن الكلام على ثنائية اللغة والثقافة، في إطار فتح أطر السؤال الآتي:

على ماذا كان يراهن الاستعمار الفرنسي ؟

ولعل الجواب الذي يحمل أبعاد الوضع الذي نعيشه بكل جوانبه مبدئيا، وهو سر الواقع الفعلي في الجزائر وسائر الدول العربية والإسلامية، أن الرهان كان تخريج نخب علمانية تعكس الرؤى الغربية للحياة عامها وخاصها، وهكذا حاصرت كل ما يمث بصلة للإسلام عقيدة وشريعة ، ثقافة وسلوكا.

أولا: التأثيرات اللغوية.

اعتمد التوجه الفرنسي في الجزائر على معاداة العروبة والإسلام، إذ عمل على محاولات محو اللغة العربية، وبالتالي طمس معالم الثقافة في المجتمع الجزائري وكانت البداية تتمثل خاصة في إغلاق المدارس والمعاهد، ثم مع بدايات القرن الماضي منع تعلم اللغة العربية، واعتبرها على ذلك لغة أجنبية[1]، وفي المقابل عمل جهده على نشر اللغة والثقافة الفرنسيتين، بحيث لا تتم الترقية الاجتماعية إلا بضرورة تعلم الفرنسية[2].

---

[1]- واستثنى تعليمها فقط بشرط الحصول على ترخيص خاص من السلطات الاستعمارية.

[2]- كانت أولى التوصيات لقادة الاحتلال في باريس لجيشهم الزاحف على الجزائر في بداية 1830 هي قولهم : " علموا لغتنا وانشروها حتى تحكم الجزائر فإذا حكمت لغتنا الجزائر فقد حكمناها حقيقة " مازن المبارك، دور اللغة العربية في التعليم العالي والجامعي، المؤتمر التربوي لتطوير التعليم العالي والجامعي، دمشق، 1971،ص 562-563

كما اهتم المستعمر زيادة على سياسة تعميم تعلم الفرنسية، اعتمادها كلغة رسمية في الجزائر المستعمرة، مع الترويج للهجات المحلية، واللسان العامي وهذا طبعا على حساب اللغة العربية قصدا إلى إماتتها في عقر دارها.

هكذا يظهر لنا و بجلاء أن السياسة اللغوية للنظام الاستعماري الفرنسي اعتمدت على تخطيط دقيق، مكن للغة الفرنسية، وفتح المجال لها لبسط نفوذها في مختلف المجالات، وقلل بالتالي تدريجيا من مساحة تداول اللغة العربية على اعتبار أنها ليست بلغة علم، مع الإبقاء عليها فقط كلغة للتواصل اليومي، وبعدها العمل على الفصل بين العرب والبربر في استعمال اللغة العربية، وهذا بتشجيع استخدام اللهجات المحلية إلى جانب الفرنسية كلغة تدريس[1].

---

[1]- وفي ذات المعنى يقول الجنرال (هاردي) أثناء لقاء له بمكناس سنة 1920 مع جماعة من الحكام الفرنسيين: (وهكذا فنحن ملزمون بالفصل بين تعليم خاص بالنخبة الاجتماعية، وتعليم لعموم الشعب: الأول يفتح في وجه أستقراطية مثقفة في الجملة توقفت عن النمو الفكري بسبب تأثير العلوم الوسيطة...

إن التعليم الذي سيقدم لأبناء هذه النخبة الاجتماعية تعليم طبقي يهدف إلى تكوينها تكوينا منظما في ميدان الإدارة والتجارة، وهي الميادين التي اختص بها أبناء الأعيان المغاربة.

أما النوع الثاني وهو التعليم الشعبي الخاص بالجماهير الفقيرة والجاهلة جهلا عميقا فيتنوع بتنوع الوسط الاقتصادي: في المدن يوجه التعليم نحو المهن اليدوية خاصة مهن البناء، وإلى الحرف الخاصة بالفن الأهلي. أما في البادية فيوجه التعليم نحو الفلاحة.. وأما في المدن الشاطئية فسيوجه نحو الصيد البحري والفلاحة، أما عن المواد العامة التي ستتخلل هذا التعليم التطبيقي فهي اللغة الفرنسية التي بواسطتها سنتمكن من ربط التلاميذ بفرنسا). محمد عابد الجابري، التعليم بالمغرب العربي، توزيع المركز الثقافي العربي، 1989، ص 18.

ولتحقيق السياسة الاستعمارية في الجزائر، كان السعي الأكيد هو ضرب الوحدة الوطنية الجزائرية بين العرب والبربر، وهذا عن طريق إيجاد تفسيرات مغرضة وأحكام متحيزة لأحداث التاريخ الجزائري ومنها، أنه كان من الممكن أن يكون للبربر نفس مصير الأوروبيين لولا الإسلام، كما اعتبروا العنصر البربري ذا أصل أوروبي، وبالتالي خلصوا إلى أنه معاد بطبيعته للعرب[1]، والظاهر أن المسعى من وراء هذه البحوث الاستعمارية، المحافظة على خصوصية ولغة منطقة القبائل بعيدا عن التطور العام للجزائر.

ولقد أصدر والي فرنسا آنذاك الأميرال (كيدون) سنة 1871 أوامره إلى الآباء البيض[2] وهذا في إطار السياسة اللغوية والتعليمية التي جربتها فرنسا في الجزائر بقوله : إنكم إذا سعيتم إلى استمالة الأهالي بواسطة التعليم وبما تسدون إليهم من إحسان تكونون بعملكم هذا قد قدمتم خدمة جليلة لفرنسا، فليس في وسع فرنسا أن تنجب من الأطفال ما يكفيها لتعمير الجزائر، ولذلك فمن الضروري الاستعاضة عن ذلك بفرنسة مليونين من أبناء البربر الخاضعين

---

[1]- الحقيقة أن عمقنا التاريخي الأمازيغي لا يتناقض أبدا مع انتمائنا الحضاري العربي الإسلامي، بخصوص هذه التشكيكات المغرضة يرجى الرجوع إلى مؤلف: محي الدين عميمور، الجزائر (الحلم والكابوس)، محاولة لفهم المأساة الجزائرية، ط2، دار هومه، الجزائر، 2003، ص 99-106، و ص 241 وما بعدها.

[2]- وهم أعضاء منظمة تبشيرية فرنسية تعمل من أجل تنصير سكان البلاد المستعمرة مثل الجزائر، وهذا قصدا للقضاء على الدين الإسلامي ومعتقده ، وإحياء كنيسة إفريقيا الرومانية اعتمادا على مقولة: " إن العرب لا يطيعون فرنسا إلا إذا أصبحوا فرنسيين، ولن يصبحوا فرنسيين إلا إذا أصبحوا مسيحيين ".

لسلطتنا، واصلوا عملكم بحنكة ودربة وحيطة، ولكم مني التأييد، وفي إمكانكم أن تعتمدوا علينا كل الاعتماد) [1].

و كانت نتيجة السياسة الاستعمارية بخصوص التركيبة اللغوية في جزائر ما بعد الاستقلال أن تشكلت من مكونات ثلاث هي: اللغة العربية، اللهجات المحلية وعلى رأسها الأمازيغية، واللغة الفرنسية، والملاحظ أن هذه الوضعية اللغوية تتصف بالتعقيد لأنها نتاج حقبة زمنية زادت عن القرن وربعه، كان الهدف الرئيس منها إلحاق الجزائر بفرنسا ماديا ومعنويا.

■ ففيما يخص اللغة العربية[2] فقد أذكى الاستعمار الهوة بين العربية الشفهية والعربية الكلاسيكية، وهذا بسبب الأهمية التي ترعاها الكتابات في الحياة المعاصرة، وكذلك إبعاد اللغة العربية الفصحى طوال فترة الاستعمار وذلك باحتكار اللغة الفرنسية لقطاعي التعليم والإدارة، وعليه عرفت اللغة العربية المكتوبة الإبعاد والتقليص في تدريسها وبالتالي حصر استعمالها في مجالات ثانوية لا تلعب الدور الفعال والمؤثر في المجتمع بشكل مباشر.

ولعل مما يبعث على التفاؤل المحاولات المتكررة لسياسة التعريب بعد الاستقلال، والتي حاولت منح العربية المكانة المميزة لها بدل اللغة الفرنسية وخاصة في مجالي الإدارة والتعليم العالي، وهذا بتفعيل كونها اللغة الرسمية فعلا.

---

[1]- محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص 109.

[2]- يستعمل مصطلح اللغة الأم ومعناه اللغة التي يسمع الطفل فيها كلمة أمه ثم كلمة محيطه، وهذه اللغة هي التي تطبع الفرد كأصل مدى الحياة.

وبالرجوع إلى الواقع نجد اللغة العربية الدارجة أو اللهجات المحلية كالأمازيغية تسود العلاقات والحياة العائلية والاجتماعية، وهي كذلك لغة التواصل في الحياة الدراسية بين التلاميذ والمدرسين، ما عدا التعليم الذي يتم باللغة العربية الفصحى أو الفرنسية، حيث إنه في فترة من الفترات باتت النشرات الإخبارية التي تقرأ بالعربية الفصحى تعطي الانطباع بأن الأمر يتعلق بقراءة بلاغ رسمي.

ولا يخفى ما تعانيه الحياة السياسية من معترك حامي الوطيس بشأن وضع الأمازيغية على اعتبار أنها شفهية مما يعني أن مآلها الموت وإن طال الأجل، حيث حركة هذه الفكرة الجهود لكي تدخل مجال الكتابة فاحتضنتها الحروف الإسبانية والإيطالية والفرنسية، ويا ليتها صيغت على النظام الصرفي للعربية لحلت المشكلة من أساسها إذا اعتبرناها بالفعل مشكلة.

■ وبخصوص اللغة الفرنسية فقد سبق القول إن الاستعمار قد بسط لغته في إرساء وتنظيم الجوانب الاقتصادية والإدارية والاجتماعية والثقافية في الجزائر، بحيث كانت هي اللغة الرسمية طوال فترة الاحتلال، وبعده بشكل غير رسمي[1] وليست القضية لغوية بشكل محض بل عبرها تم تمرير قانون المستعمر، وأيضا ماديات الحضارة التي كان يجسدها.

كما تستخدم الفرنسية في وسائل الإعلام باختلاف أنواعه، حيث تشهد انتشارا شفهيا واسعا بين الأوساط الشعبية، سواء تعلق الأمربالعمال الذين أقاموا في

---

[1] – فهي السائدة في القطاع الاقتصادي والإداري الأكثر تقنية كالمالية مثلا ولا زالت تحتل مكانة هامة في التعليم خاصة العالي كالطب والهندسة والصيدلة.....

فرنسا، أو حتى بالسكان في الاستعمال الدارج لهم، وارتقى الأمر عند البعض إلى اتخاذ النطق بها من باب التفاخر والتفوق.

وهكذا فقد استهدف الاستعمار الفرنسي على المديين القريب والبعيد على استئصال اللغة والثقافة العربيتين، وهذا بإقصائهما بيداغوجيا والحط من شأنهما ثقافيا.

ولعل الدلالة الأكثر وضوحا أن النخب عندنا تختار لأبنائها المدارس الفرانكفونية[1] حيث تعتبر سياسة التعريب الدفة التي تدار لاستقطاب الفئات المحرومة عند الحاجة.

وككل البلدان التي تخرج من وطئة الاستعمار، وتتوقد فيها جذوة إثبات الذات، ومن تم إعادة بناء ما أفسده المستعمر- وإن كان الموروث الاستعماري ثقيل- فالطابع العام لسياسة الوضع الجديد هو تثمين الاستقلال في إطار الاستمرارية، وهكذا ففكرة التعريب تدور بين تعزيز التعريب وبين ازدواجية القرار، حيث بدأ ت الجزائر سياسة التعريب ابتداء من سنة1965 إلى حدود 1976، وما

---

[1]- تعود كلمة فرانكفونية إلى عالم الجغرافيا " أونيسيم ريكلوس" الذي اقترح في سنة 1880 فكرة تصنيف الشعوب وفق اعتبارات لغوية، وبعد عقود من النسيان عاد التعبير إلى الوجود سنة 1962 في عدد خاص لمجلة: ESPRIT حول محور الفرنسية لغة حية، ولقد وقف إلى جانب الأقلام الفرنسية ثلاث رؤساء دول أفارقة هم: بورقيبة (تونس)، سنغور (السنغال)، ديوري (النيجر).

ومن المفيد الإشارة إلى الرفض الذي سجله أدباء فرانكفون من الجزائر توقفوا بكل بساطة عن الكتابة بالفرنسية.

زالت المحاولات إلا أنها في الغالب الأعم تصطدم بعراقيل موضوعية وأحيانا مفتعلة، نتيجة عدم التعريب الكامل.

ولقد كان الهدف الاستراتيجي للمخططين التضييق العملي والنفسي على كل ما يكتب من اليمين إلى اليسار، وشمل ذلك محاصرة الإنتاج الثقافي المكتوب بالعربية أو التقليل من أثره، وبالتالي جعل الفرنسية واقعا يوميا يفرض نفسه، وبهذا زاد الشرخ اللغوي وأخطاره منذ الثمانينات.

إذن فالنظام التعليمي الآن يعرف تدريس المواد التجريبية والطبيعية باللغة العربية حتى حدود المستوى الثانوي، مع اعتماد اللغة الفرنسية في تدريس هذه المواد بالجامعة، وفي هذا ارتباكا واضحا لتحصيل تلك العلوم وحتى للدارسين.

وكان من الممكن أن تنجح عملية التعريب بشكل جدي لو توفرت الإرادة الوطنية القوية والشجاعة، وبالموازاة يخف ضغط التيار الفراكفوني.[1]

وهكذا أصبح الشرخ اللغوي الموروث من أخطر ما يمس وحدة الوجدان الوطني، وهو ما جعل البعض يتحدث بشكل متسرع عن أزمة الهوية وهي بالتأكيد ليست كذلك، بقدر ما يراد لها أن تبدو كذلك، وعليه يرى البعض أن تأخر تطبيق قرارات تعميم اللغة الوطنية وتمييع الإجراءات التي اتبعت سبيل تعميق الانتماء الوطني الحضاري كان بفضل ما يسمى " الإجراء المؤقت "أو " المؤقت الدائم"[2].

---

[1]- الفراكفونية بمعنى آخر هي محصلة إدارة الميراث الناجم عن التحطيم المنهجي للغة الوطنية للشعب الجزائري في أبشع صورة لأشكال الاستعمار المعاصر.

[2]- محي الدين عميمور، المرجع السابق، ص 70.

وفي ظل الوضع الجزائري خاصة أعطى الجزائريون الفرنسية في أقل من ربع قرن أكثر مما أخذوا منها في ظل الاستعمار أكثر من قرن، حيث اتجهت مواقف البعض فيما بعد إلى استعمالها ضد تعميم استعمال اللغة العربية في الإدارة والمصالح العمومية، ومنه مواصلة استعمال الفرنسية، ويخرج قول الكثيرمن أنصار التوسع في استعمال الفرنسية رأيهم على أن ما يناسب الجزائر المستقلة التي أعطت مكانة بارزة للفرنسية في مجال التعليم، أنها كانت تعمل وفق منظور حضاري ترى فيه أن اللغات الأجنبية حاجة و ضرورة وطنية.

وهكذا وضع هذا التصور الفرنسية كلغة متميزة ولا أجد تعقيبا أصدق من قول الدكتور المهدي المنجرة خبير المستقبليات في أحد حواراته من قوله: ' لا أقبل من أي أحد أن يقول إنها قضية بيداغوجية، وان لنا مشاكل، وأن التعريب صعب، وصعب أن تستعمل اللغة العربية في تعليم الكمياء والبيولوجيا، فهذا الكلام لا أساس له من الصحة لأن التجارب في العالم بأسره برهنت أنه دون الاعتماد على اللغة الوطنية ودون لغة الأم في تعليم العلوم لن يكون هناك تقدم حقيقي، وأستطيع أن أقدم لك نماذج من كوريا وتايوان واليابان وماليزيا والصين وغير ذلك.

هناك ضغط من الخارج وتخوف من نخبة معينة لها مناصبها ووظائفها، وحياتها كلها مبنية على اللغة الأجنبية، فالاستعمار كان واضحا..راح الاستعمار وخلف

أفرادا معينين قائمين بالعمل..فأظن أنه لم يتبق وقت للكلام في هذا الموضوع لأنها ليست قضية تقنية أو فنية، يجب أن نتفق أنها قضية سياسية'.[1]

ولعل في الوضع التعليمي الدلالة الصريحة على مظاهر الاضطراب اللغوي، فمع إعادة التمكين للغة الفرنسية لغة للدراسة والتدريس، وإدخال تدريس اللغة الإنجليزية ابتداء من السنوات الأولى الأساسي، إضافة إلى تدريس اللهجات الأمازيغية، يعتبر هذا التركيب اللغوي تحنيا على التلميذ الجزائري الذي سيجد نفسه في سنواته الأولى أمام خيارات لغوية عديدة تحرمه حتى من إتقان اللغة العربية ابتداء وكذا الانفتاح الموزون والمتتالي على اللغات الأخرى.

ثانيا: التأثيرات الثقافية.

يستعمل مصطلح الثقافة[2] للدلالة على الرقي الفكري والأدبي والاجتماعي للفرد أو الجماعة، وهذا بما تحويه اللفظة من معاني للعقائد واللغة والقيم والمبادئ

---

[1]- المهدي المنجرة، حوار مع مجلة عالم التربية حول قضايا التربية والتعليم بالمغرب، العدد 2-3 ، 1996.

[2]- الحقيقة أن هناك نوعان من الثقافة:

- ❖ الثقافة السياسية: وتهتم بأمور الناس وقضاياهم المصيرية خاصة مجال الحريات كحرية الاعتقاد وحرية الرأي.....

وهذه تنقسم إلى فرعين:

- ○ ثقافة تدفع نحو التحرك والإيجابية بغية التغيير والإصلاح.
- ○ ثقافة تدعو إلى السلبية وتكرس التبعية والخوف والخنوع.

- ❖ الثقافة الاجتماعية: وهي جملة الأعراف والتقاليد التي ينبني عليها المجتمع بما يضمن السعادة في ظل القوانين المنظمة .

أفرادا معينين قائمين بالعمل..فأظن أنه لم يتبق وقت للكلام في هذا الموضوع لأنها ليست قضية تقنية أو فنية، يجب أن نتفق أنها قضية سياسية'.[1]

ولعل في الوضع التعليمي الدلالة الصريحة على مظاهر الاضطراب اللغوي، فمع إعادة التمكين للغة الفرنسية لغة للدراسة والتدريس، وإدخال تدريس اللغة الإنجليزية ابتداء من السنوات الأولى الأساسي، إضافة إلى تدريس اللهجات الأمازيغية، يعتبر هذا التركيب اللغوي تحنيا على التلميذ الجزائري الذي سيجد نفسه في سنواته الأولى أمام خيارات لغوية عديدة تحرمه حتى من إتقان اللغة العربية ابتداء وكذا الانفتاح الموزون والمتتالي على اللغات الأخرى.

ثانيا: التأثيرات الثقافية.

يستعمل مصطلح الثقافة[2] للدلالة على الرقي الفكري والأدبي والاجتماعي للفرد أو الجماعة، وهذا بما تحويه اللفظة من معاني للعقائد واللغة والقيم والمبادئ

---

[1]- المهدي المنجرة، حوار مع مجلة عالم التربية حول قضايا التربية والتعليم بالمغرب، العدد 2-3 ، 1996.

[2]- الحقيقة أن هناك نوعان من الثقافة:

- ❖ الثقافة السياسية: وتهتم بأمور الناس وقضاياهم المصيرية خاصة مجال الحريات كحرية الاعتقاد وحرية الرأي.....

وهذه تنقسم إلى فرعين:

- ○ ثقافة تدفع نحو التحرك والإيجابية بغية التغيير والإصلاح.
- ○ ثقافة تدعو إلى السلبية وتكرس التبعية والخوف والخنوع.

- ❖ الثقافة الاجتماعية: وهي جملة الأعراف والتقاليد التي ينبني عليها المجتمع بما يضمن السعادة في ظل القوانين المنظمة .

والسلوك وغيرها. وما قيام الحضارات الراسخة إلا نتيجة ارتكازها على ثقافة قوية تعتمد أساسا على الدين والقيم والأخلاق.

لقد عاشت الجزائر في أحضان الحضارة الإسلامية تستقي من ثقافتها الشاملة التي كان أساسها القرآن ولحمتها اللغة العربية، حيث لحضارتنا التاريخ المجيد إذ به قامت ثقافتنا على التوحيد الذي جمع أبناء الأمة الإسلامية بكافة أجناسها وألوانها، وعصمها بالتالي من التمزق والانقسام.

ولقد لعبت الثقافة العربية والإسلامية قديما وحديثا دورها البالغ الأهمية في التماسك الاجتماعي والداخلي للمجتمع الجزائري حيث كانت تربط الجزائريين بماضيهم العربي الإسلامي من ناحية، كما كانت في الوقت نفسه تيارا قويا يدفع بهم إلى الأمام لتطوير حياتهم والارتقاء بها في جميع المجالات في إطار من الأصالة والتفتح من ناحية أخرى، ولذلك كانت ولا تزال تعد من أهم مقومات الشخصية الجزائرية، ولقد عانت هذه الثقافة طوال فترة الاستعمار المظلمة من محاولات القضاء عليها ما لم تعان مثله ثقافة أخرى في أي بلد أخرى من العالم.[1]

إن للثقافة كأداة آلية فاعلة وذات قدرة عالية على تحقيق التغيير والتبديل، ومنه إعادة الهيكلة والصياغة للبنية الحضارية للأمم والشعوب، كونها تنبثق عن

وهي كذلك نوعان:

- ثقافة تدعو إلى القيم والمثل النبيلة من تعاون وترابط.
- ثقافة تشد نحو السلبيةوالانعزال وبث روح الهزيمة.

[1] - رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، مجلة الثقافة، السنة6، العدد 32، جمادى الأولى 1396- ماي 1976، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، ص 102.

ؤية شاملة، وتقوم على منظومة من التصورات والمذاهب والفلسفات
ا وتضفي عليها ملامح وخصائص تقودها صوب هذا المنظور أو ذاك.
ة إلى قبول ثقافة مغايرة لها معناه إضافة عناصر غريبة عن المناخ الذي
ه وتنمو، بل وأخطر من ذلك أن تفقد شيئا فشيئا من مقوماتها
وهذا بفقدان عناصر تميزها والذي يعتبر آذان لتفككها وسقوطها.
ن الغزو الثقافي أهم وأخطر مداخل الغزو الاستعماري عبر القرنين
ونحن اليوم في عالم تتحكم فيه الحضارة المادية الغالبة بكل معطياتها،
ها أحدثت تغييرا في جهازنا الثقافي وقادتنا شيئا فشيئا إلى الانحلال
ن إن الكلام عن الثقافة وأحوال من ينتسبون إليها يحمل بين طياته
سيلة وصعبة في آن واحد، جميلة لأنها مرآة لكشف الحقائق وأصول
صعبة لأن وظيفة الثقافة الحقيقية قيام حضارات تتجسد فيها عادات
تضبط سلوكيات الأمم وتوجه مصيرها بين الأمم والشعوب.
فة الحقة تبقى وتظل الكاشف للواقع السيء والمتخلف سعيا وراء
صلاح نحو واقع أفضل تسود فيه القيم والمثل السامية.
ن الاستعمار في ظل محاولات التغريب الثقافي ثقافته بأسلوب العنف
حيانا المداهنة، مثل طرح قضية أن الثقافة عالمية ليتمكن بحضارته القوية
التالي الاستيلاء على العالم الإسلامي وعلى دوله تباعا ومنها الجزائر،
عليه أن المعرفة عالمية وكذلك العلم، ويستثنى من هذا أن الثقافة تبقى
ة،لأنها تستمد قيمها من أصالة وجذور الأمة ولغتها ودينها وتاريخها،

وعليه تعد فكرة أن العالم كله متجه نحو وحدة الفكر العالمي من أخطر دعوات التغريب والغزو الثقافي.[1]

ولأجل تحقيق ذلك تم تدعيم مؤسسات علمية تربوية عن طريق الإرساليات، قصدا إلى إخراج أجيال تعنى بقيم الغرب وتعليها عن طريق إثارة الشبهات حول الإسلام خاصة حيث ركزت هذه المؤسسات على صياغة العقول صياغة كان الهدف الأساس منها جعلنا تابعين أو مستعبدين.[2]

ولقد كان من أعمال الغزو الثقافي أن الاستعمار ما أعطانا إلا قشور الحضارة، وحجب عنا لبها وجوانب القوة فيها، وبالموازاة لذلك أبعد الفكر والثقافة الإسلاميتين عن مجال الحياة ومناهج التربية وسخر لذلك كوادر راحت حثيثا تدافع عن ثقافته بحجة أنها السبيل إلى التطور والانفتاح.

وهنا نحب التأكيد على الفارق بين الحضارة والثقافة فالأولى تعني أننا بالإمكان نقلها بين الأمم على اعتبار أنها مادية، بينما الثانية أي الثقافة فلا يصدق عليها مثل هذا الوصف لأنها وببساطة هي بنت بيئتها وقيمها ودينها .

ومن القضايا التي أثيرت للسيطرة على ثقافتنا الأصيلة:

1) مهاجمة الدين ووضع العلم في مواجهته كبديل ، وعليه فصل الغرب بين العلم والدين وبنى حضارته على أساس هذا الفصل.

2) القضاء على اللغة بنشر العامية وإحلال لغات أخرى محلها وتفعيلها.

---

[1]- أنور الجندي، الثقافة العربية، ط1، دار الكتاب اللبناني، 1982، ص

[2]- المرجع السابق نفسه، ص 12.

3) إثارة الشبهات حول التاريخ الإسلامي والدعوة الصريحة إلى إقليمية التاريخ، تحجيما لقيمته العالمية.

4) طرح قضايا الفلسفات اليونانية الغربية مثل: التحرر الوجودية الماركسية الفرويدية العصرنة العولمة والحداثة....والقصد الأهم هو التشويش وتوجيه الإهتمام نحو القضايا الهامشية.

5) نشر القيم الغربية التي لا تنتج إلا القلق والفوضى والضياع، ومحاولات نشرها عند المسلمين لإخراجهم من قيمهم وأصالتهم.

6) طرح بعض القضايا التحبيطية مثل أن الإسلام مصدر ضعف المسلمين، أو أن الشريعة قاصرة ومحدودة...

وعن الآليات الأفضل لنشر الثقافة الضرورية لفقه الواقع في مواجهة التحديات المعاصرة يقول الدكتور عماد الدين خليل: " تظل المؤسسات المدرسية والجامعية هي الآليات الأفضل في هذا المجال، جنبا إلى جنب مع المسجد ويتممها دور الكتاب والصحيفة والمجلة وقد انضافت إلى ذلك - عبر العقود الأخيرة – آليات المعلوماتية من خلال أجهزة الكومبيتر أو الأنترنت فضلا عن التلفاز والفضائيات، ويمثل مربع الشاشة الصغيرة هذا تحديا للأمة يتحتم أن تشمر عن ساعد الجد للإفادة القصوى منه، في ذات الوقت يفرض عليها جهدا موازيا في مجابهة خلفيات السوء التي تنطوي عليها والتي قد تلحق بأبناء الأمة كسورا فكرية ونفسية وسلوكية ليس جبرها بالأمر اليسير".

إذن فليس من خطر على الخصوصيات الثقافية واللغوية وحق الاختلاف بين الثقافات والشعوب، حرمان هذه الشعوب من حقوقها الأولية باسم أي خصوصية تفصل على قدر امتيازات السلطة السياسية هنا أو السلطة الأبوية والتقليدية هناك، أو أية سلطة عالمية موظفة للهيمنة على حساب المبادئ والقيم.

الخاتمة:

هكذا وصلنا إلى حقيقة أننا خرجنا من استعمار عسكري إلى استعمار ثقافي وفكري وإن شئت قلت إلى تغريب وغزو مس جوانب حياتنا بشكل واضح ومفضوح ، لقد أحدث المشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر جروحا عميقة تغلغلت في كيان المجتمع الجزائري كله، حيث كان الهدف الأول للاستعمار إلغاء الوجود المادي والمعنوي للشعب الجزائري لذلك تعددت وسائله وحيله لكسر شوكة الجزائريين وهذا بايقاف النمو الحضاري للجزائر 132 سنة، مع امتداده إلى وقتنا الحاضر.

وكان معتمدهم لتحقيق هجمتهم الشرسة على الجزائر خاصة باعتبارها بوابة إفريقيا، معاداة العروبة والإسلام وهذا بمحو العربية، وطمس الثقافة والهوية العربية والإسلامية للجزائريين، وبالمقابل العمل وبكافة الأساليب على نشر الثقافة واللغة الفرنسيتين وهذا بضرب الوحدة القبلية والأسرية للمجتمع الجزائري، واتباع سياسة تبشيرية هي في حقيقتها امتداد للحروب الصليبية تطبيقا لمقولة: (إن العرب لا يطيعون فرنسا إلا إذا أصبحوا فرنسيين، ولن يصبحوا فرنسيين إلا إذا أصبحوا مسيحيين).

وبدلا من أن تكون اللغة الفرنسية وسيلة لتقديم الحضارة العربية والإسلامية للغرب أصبحت مدخلا للاستلاب الفرنسي الاستعماري إلى مجتمعاتنا الفتية وبدلا من أن تكون الفرنسية وسيلة لغوية ليس إلا أصبحت غاية سياسية هدفها الإمساك بدواليب السلطة إلى أبعد الحدود.

إن الازدواجية اللغوية ترجح استمرار الازدواجية في كل شيء مع استمرار الصراع ضد الإيديولوجية الفراكفونية حتى إشعار آخر، في ظل غياب إرادة قويةوحاسمة وقرار شجاع ومستقل عن التوصيات الملزمة التي تمليها المؤسسات الدولية، وهذا بقرار يدعم اللغة الوطنية وينظم تعلم اللغات الحية كلغات للتواصل مع الآخر ويستمر الأمل قائما خاصة مع التحولات التي كرست التراجع الكبير الذي تعرفه مكانة اللغة الفرنسية في قائمة اللغات الحية العالمية، وخاصة في مجالي التكوين والبحث العلمي.

نعم أخذ الاستعمار كل وقتنا وأغلى ما نملك وشغلنا عن التطلع للمستقبل، لقد خسرنا زمنا طويلا كان بمقدورنا فيه لو أحسنا التمحيص والتخيير أن يجعلنا ليس فقط أكثر أصالة، بل وأيضا أن نقلل الهوة بيننا وبين الغرب، وأن نرغمه على احترامنا وربما بل بالتأكيد مد اليد لطلب العون منا.

إذا نحن لم ننصت جيدا لنداء اللحظات التاريخية ونتابع بعمق وتبصر مواصفات الزمان والمكان، وما لم ندرك ابتداء وانتهاء أن الحركة التاريخية تنطوي دائما على الثابت والمتغير معا، تحتم علينا إدراك ذلك وإلا فسنتزلق- شئنا أم أبينا- إلى مواقع الخطأ مرة أخرى وسنحكم على أنفسنا كرة بعد أخرى بالدوران في الحلقة المفرغة.

لقد وصلنا إلى مواقع الخطر التي قد تفضي إلى ما هو أخطر، لهذا وجب علينا التحرك والتغيير والإصلاح الجذري ليشمل جميع المجالات إذا أردنا بالفعل أن نلحق بركب التقدم الحقيقي، وإلا فلننتظر ما سيحمله لنا المستقبل القريب من حواجز تدعم عجزنا وتورثه، وتبقى العزيمة والإرادة الكفيلان بتحقيق المرتجى و لم لا في غضون العشرية القادمة إن شاء المولى وقدروفق المعادلة الآتية:

التغيير الحقيقي = تجاوز تشاؤم الواقع + تفعيل تفاؤل الإرادة.